الجـالية الهـنديـة في كسـلا
ودورها في العمل التطوعي

لؤي محمد عثمان

تمهيد:

يتناول هذا المقال بالشرح والتحليل تاريخ الجالية الهندية في كسلا ودور أفرادها في العمل الخيري والتطوعي في المنطقة، ويسعي الكاتب من خلاله لمعرفة مدى فاعلية معتنقي الفلسفات الدينية في مجال العمل التطوعي، ومن ثَمَّ دراسة سلوك أتباع هذه الفلسفات دراسة مستفيضة، وإلى أيٍّ مدى يرتبط التمسك بهذه الفلسفات بالاندفاع نحو العمل التطوعي وقيمه. فيهدف المقال بصورة خاصة إلى رصد الجهد الخيري والتطوعي الذي تضطلع به الجالية الهندية في كسلا وعلاقة ذلك بالفكر الهندي والثقافة الهندية.

وقد اختار الباحث المنهج الشمولي الذي يعدد الأداة ويعدد المناهج، بالإضافة إلى المنهج التاريخي لوصف التسلسل التاريخي لتوافد أفراد الجالية إلى السودان حتى دخولهم منطقة كسلا ومن ثَمَّ الأسلوب الوصفي عند الحديث عن مجتمع الدراسة. وقد استخدم الباحث استمارة المعلومات الأولية، وكذلك الملاحظة بالمعايشة والمقابلة وذلك للحصول علي معلومات وثيقة الصلة بموضوع البحث. وقد أُخذت عينة الدراسة بطريقة العينة العشوائية البسيطة حيث اشتملت على عدد ٥٣ شخصاً يمثلون خُمْس مجتمع البحث؛ بالإضافة لعدد عشر مقابلات مع من لهم صلة مباشرة بالموضوع.

أما كسلا التي تم فيها إجراء البحث فهي عاصمة ولاية كسلا، وتقع هذه الولاية في شرق السودان بين خط طول ٣٧ وخط ٣٤:٤٠ غرباً وخط عرض١٤:١١ جنوباً و١٧:١٥ شمال، وهي على مساحة قدرها ٤٢,٢٨٢ كلم٢، ويبلغ تعداد سكانها حسب آخر إحصاء سكاني (أي إحصاء عام ١٩٩٣) حوالي ١,٥٠٠,٠٠٠ نسمة. وتسكن الولاية قبائل البجة بمختلف أفرعها (الهدندوة – الحباب – الحلنقة – البني عامر)، إضافة إلى قبائل الرشايدة والشكرية وقبائل أخرى من مختلف أقاليم السودان.[١]

الوجود الهندى في السودان: خلفية تاريخية اجتماعية

جاء احتلال بريطانيا لعدد من الدول لفرض سيطرتها وبسط نفوذها بهدف الإفادة من مقدراتها، والذي بدوره مهَّد الطريق لأعداد مقدرة من رعايا هذه الدول في كل من قارتي آسيا وإفريقيا للحركة من وإلى داخل مستعمرات الإمبراطورية. وكان نتاج ذلك أن برزت إلى حيز الوجود هجرات عديدة، لعل أبرزها هجرة الهنود من شبه القارة الهندية إلى عدد من دول إفريقيا للعمل في قطاعات مختلفة، منها العمل في مزارع السكر بإقليم ناتال في جنوب إفريقيا، وبناء خط السكة حديد ممبسا–نيروبي بكينيا.[٢] وبالفعل فقد شهدت المنطقة العربية هجرات باكرة من شبه القارة الهندية خاصة منطقة الخليج العربي واليمن في عصر ما قبل الإسلام وذلك بغرض التبادل التجاري وتسويق المنتجات الهندية، وفي ذلك يقول عنترة بن شداد:

(١) لؤي محمد عثمان، مجلة سد مروي، العدد ٣٦، السنة الرابعة، يونيو ٢٠٠٦، مقال بعنوان: كسلا هبة القاش.

(٢) Alan B. Mountjoy and David Hilling (1988): *Africa: Geography and Development*, London: Book Print Creative Service, p. 356.

ولقد ذكرتك والرماح نواهل منِّي وبِيض الهند تقطر من دمي

فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

ولما كان السودان يمثل إحدى دول القارة الإفريقية، وقد خضع للإدارة الاستعمارية البريطانية، فإن هجرات الهنود إليه لم تكن بمستغربة، وقد جاءوا للعمل في مجالات مختلفة خدمة للإدارة البريطانية، حيث عمل عدد مقدر منهم في إرساء أسس وقواعد النظام العدلي والإسهام في الإشراف على الانتخابات الأولى في السودان في بواكير الاستقلال ولكن سرعان ما تركز جهدهم في الأعمال التجارية فقط.

هنالك روايات شفهية مختلفة عن تاريخ قدوم الهنود إلى السودان، والراجح منها إن أول هندي وفد إلى السودان كان في الزمان البعيد عبر شرق السودان – تحديداً سواكن – في عام ١٨٦٠م في مركب شراعي قادماً من مصوَّع التي سبق أن استقر بها مجموعة من التجار الهنود. فلم يكن من الصعوبة أن يجيء منهم مهاجرون ويستقروا ويمتلكوا الأعمال التجارية والعقارات.[٣]

وتعتبر هجرة الهنود في الأصل هجرة اقتصادية بغرض مزاولة النشاط التجاري، حيث إن معظم الهنود المقيمين في السودان هم من منطقة واحدة هي مقاطعة قوجارات غربي الهند في إقليم سوراشترا، وهم يتحدثون اللغة القوجاراتية. هذا بخلاف الهنود الذين قدموا للعمل في قطاع الاستثمار عبر الشركات الهندية التي وفدت إلى البلاد مؤخراً.[٤]

(٣) مجلة انا أم درمان – العدد صفر، مقابلة مع عمدة الهنود – أم درمان ٢٠٠٤/٦/٢٩م.

(٤) نفس المصدر.

الوجود الهندي في كسلا:

جاء الهنود إلى مدينة كسلا على ظهور الجمال، حيث يعود تاريخ الجالية في مدينة كسلا إلى عام ١٩١٨م. وقد قدموا إليها من سواكن بغرض مزاولة النشاط التجاري حيث كانت التجارة رائجة والحدود مع دول الجوار مشرعة الأبواب، واستيراد السلع من بريطانيا لا تقابله أيُّ عوائق.[٥]

في بادئ الأمر كان تعداد الجالية الهندية في كسلا قليل ثم توالدوا وتكاثروا فازدادت نسبتهم، وبلغ عدد الأسر الهندية حوالي ٥٥ أسرة بمتوسط ٤ أفراد للأسرة الواحدة مع نهاية عهد الاستعمار. وقد قامت الإدارة الاستعمارية بتخصيص موقع ليكون سكناً لهم حمل فيما بعد اسم "حي الهنود" ولا يزال قائماً، وإن كان الآن لا يسع كل أفراد الجالية، إلا إنه يمثل مركزاً وملتقىً لكل أفرادها.

وبالنظر إلى تاريخ قدومهم، وهم الآن يستشرفون الجيل الثالث منذ ذلك التاريخ، فقد كان هؤلاء الهنود مسالمين بعيدين عن كل مظاهر العنف، وتشهد لهم بذلك مضابط الشرطة عبر تاريخهم الطويل. وهم بهذا أصبحوا جزءاً من المجتمع السوداني بكسلا، يشاركون أهلها في السراء والضراء، وكذلك يشاركون الدولة في احتفالاتها الرسمية واستقبال كبار الزوار بالمدينة من خلال استعراضهم لتراثهم الفني في مختلف المناسبات القومية والوطنية.[٦]

وقد جاء في إحصاء عام ١٩٩٣م بشأن غير السودانيين بولاية كسلا أن غير السودانيين الذين ينحدرون من شبه القارة الهندية بلغ عددهم حوالى ٢٣٦ نسمة لكلا

(٥) مقابلة مع عمدة مدينة كسلا، ٢٠٠٤/١٢/١٨م.

(٦) نفس المصدر.

الجنسين، وتنقسم إلى ١١٥ نسمة ذكور و١٢١ نسمة إناث من جملة غير السودانيين بالولاية والبالغ عددهم ١٠٧٩٣٢ نسمة.[٧]

باستثناء الجيل الأول، فإن كلا الجيلين الثاني والثالث قد ولدوا في السودان ونشأوا فيه متشبعين بثقافته. وقد حصل عدد كبير منهم على الأوراق الثبوتية من جنسية وغيرها وفقاً لقوانين الجوازات والهجرة السودانية، بينما لم يتمكن البعض الآخر من الحصول عليها لعدم استيفائهم الشروط المتعلقة بالقيد الزمني وتاريخ الأصول من جهة الأب. ولكن على الرغم من ميلاد جيلين كاملين في السودان نلحظ أن القاسم المشترك الذي يجمع بين مختلف أفراد الجالية هو حيازة الجواز الهندي الذي يستخدم لأغراض السفر خارج البلاد، خاصة دولة الأصل (الهند) التي لا تحتاج منهم إلى تأشيرة، حيث تبقى قيمة الجنسية السودانية محدودة لأغراض تملُّك العقارات من منزل ومتجر وغيرها؛ هذا بالإضافة لإثبات الشخصية للتنقل من وإلى داخل البلاد.[٨] وبين هذا وذاك، فإن قدامى أفراد الجالية يُمنحون إقامة تُجدَّد كل عشر سنوات، أما محدثيها فإنهم يجددِّون إقامتهم كل عام.[٩]

تختلف المهن التي يعمل بها الهنود في السودان باختلاف السلع المكوِّنة للنشاط التجاري، ولكنها لا تخرج عن كونها علاقة بين بائع ومشتر. فبينما يعمل البعض في تجارة الأقمشة والمعدات الإلكترونية والعطور، يعمل البعض الآخر في تجارة العجلات، المواتر، الأدوات الرياضية، ومعدات صالونات الحلاقة. وقد لاحظ الباحث أن معظم السلع التي يتاجرون بها عبارة عن منتجات هندية.[١٠]

(٧) الجهاز المركزي للإحصاء، ولاية كسلا، ٢٠٠٤/١٢/١٩م.

(٨) مقابلة مع ناريش بابولال، ٢٠٠٤/١٢/١٩م.

(٩) مقابلة مع رئيس الجالية الهندية، ٢٠٠٤/١٢/٢١م.

(١٠) نفس المصدر.

النظام الاجتماعي:

للجالية الهندية في كسلا لجنة منتخبة من جميع أفراد الجالية تضطلع بمهام تمثيل الجالية لدى السلطات في المناسبات والمحافل العامة، وتعتبر قراراتها ملزمة لكل أفراد الجالية. ويُنظر لرئيس الجالية باعتباره الأب الروحي الذي يسعى دائماً لخير مرءوسيه. وتعمل اللجنة أيضاً على حل المشاكل التي تقع أحياناً بين الأسر أو داخل الأسرة الواحدة.(١١)

على المستوى النظري، يمثل نظام الطبقات حجر الزاوية لمختلف العقائد الهندية، حيث يمكن القول إن المعتقدات الهندية الأولى هي التي وفَّرت الأساس العقائدي لهذا النظام، وإن كل الحركات الإصلاحية التي ظهرت لاحقاً نابعة من داخل الديانة الهندوسية ورافضة لهذا النظام.

يعتبر معظم أفراد الجالية الهندية في كسلا من الطبقة الوسطى، ويوجد أناس قلة من الطبقات الدنيا، ولكنهم يتعاملون بشكل واحد وعلى قدم المساواة. فيمكن القول إنه لا توجد في المجتمع الهندي بكسلا طبقات وفوارق اجتماعية على غرار ما هو سائد في مجتمع الأصل، ويعمل كلهم كإخوة متساوين يأكلون مع بعضهم بعضاً. وقد تمت حتى زيجات بين طبقات متباينة، وهو أمر قد يستحيل حدوثه في الهند.(١٢)

ويلاحظ أيضاً عدم وجود مجموعات قبلية عند الهنود بالمعنى المألوف في السودان. ففي مقابل ذلك توجد فئات طبقية على أساس المهن والحرف، مثل مجموعة الصياغ (Goldsmith)، والتجار (Wania)، والحلاقين (Waland). وحينما يُسأل

(١١) نفس المصدر.

(١٢) مقابلة مع السيد سونيل، ٢٠٠٤/١٢/٢٢م.

المرء عن انتمائه العرقي، فإنه يجيب بإحدى الفئات المذكورة، وحينما يُسأل عن "خشم البيت"، فإنه يجيب باسم العائلة (Surname)، مثل لوديا (Lodhia)، أو ميتانى (Mithani)، أو باريك (Parekh)[١٣].

النشاط الديني:

لقد ارتبط الدين بالحاجات الإنسانية ذات الأهمية الاجتماعية والفردية. وإن تعددت أشكال وأنواع الديانات، إلا أنها تعتبر ظاهرة عالمية، حيث لم تعرف الإنسانية جماعة أو مجتمع إلا وكان لهم نظام ديني محدد. وترتكز بعض الأديان إلى الاعتقاد بوجود قوة مقدسة تأخذ بتعدد هذه القوى، والبعض الآخر يقوم على التوحيد، علاوةً على التباين في العبادات وطرق التعبير الفعلية والرمزية. وإذا أخذنا الدين كنظام اجتماعي، فإنه يشمل في معناه المعتقدات وأنماط السلوك وما يرتبط بها من معايير وقيم وحاجات وبناءات تنظيمية. ومن ثَمَّ، فالدين يشمل جميع نواحي الحياة، خاصة إذا اعتبرنا أن للدين دوراً واضحاً في تشكيل طقوس دورة الحياة كما هو واضح في عقائد أهل الهند.[١٤]

يتراوح اعتقاد أفراد الجالية الهندية بين مذهبين كبيرين هما الهندوسية (Hinduism) والجاينية (Jainism). ولما كانت الهندوسية تمثل إطاراً عاماً لمعتقدات أهل الهند، فإن الجاينية قد نبعت من داخلها كحركة إصلاحية رافضة لبعض أوجه الهندوسية، وأبرزها نظام الطبقات، إلا أنها تتفق ومجمل النظام الأخلاقي بها (الذي يمثل أُس هذا البحث). وبذلك، فإن كلا المذهبين يمثلان وجهان لعملة واحدة.[١٥]

(١٣) مقابلة مع رئيس الجالية، ٢٠٠٤/١٢/٢١م.

(١٤) إبراهيم عثمان، الاصول في علم الاجتماع، الكويت: مؤسسة الكميل، ١٩٨٩م.

(١٥) مقابلة مع رئيس الجالية، ٢٠٠٤/١٢/٢١م.

يمثل أتباع المذهب الجايني أغلبية من بين العينة المبحوثة حيث تصل نسبتهم إلى ٧٠٪ مقارنةً بأقرانهم من معتنقي المذهب الهندوسي الذين تبلغ نسبتهم حوالى ٣٠٪.[١٦] ومن الغريب أن الناظر إليهم لا يستطيع التمييز بين هذا وذاك، فقد لاحظ الباحث اختزال أفراد الجالية للتباين العقائدي في مذهب واحد وهو الهندوسية، والذي شهد بدوره تراجعاً في الانتماء إليه أمام "الشخصية الهندية" والانتماء للهند. فكلهم يقدِّمون أنفسهم على أنهم هندوس. وربما كان هذا هو الإحساس الملازم للأقليات، حيث إنهم يذوِّبون خلافاتهم – مهما كبرت – وذلك لأجل المحافظة على وحدتهم باعتبار أنهم يمثلون جزيرة معزولة في محيط تهب فيه أمواج الإسلام من كل جانب. والجدير بالذكر هنا أنه لا يوجد جانب دعوي في عقائد الهند، لأنها في الأصل عقائد مرتبطة بالعرق، فهي بذلك لا تحتمل سواهم، ويبدو أن القناة الوحيدة لزيادة أتباع الديانة الهندية هي التكاثر والتناسل، ويبرز هنا التساؤل عن مستقبل هذا الأمر مع برامج الصحة الإنجابية وتحديد النسل.

تمثل دور العبادة بالنسبة للمعتقدات الهندية مراكز هامة في حياة الهنود. وبالنظر إلى واقعهم في الهند، نجد أن المعابد تتعدد بتعدد المذاهب وانتشارها. ولكن الأمر يختلف بشأنها في السودان عما هو شائع هناك؛ فأفراد الجالية الهندية في السودان يؤدون مناسكهم الدينية وكذلك الأفراح في حرم مدرسة الجالية، وتؤدَى صلاة العيد في جماعة، ويأتي ذلك بعد صيام يستمر لمدة ثمانية أيام حيث يكون اليوم التاسع هو يوم العيد.

وقد أدى غياب المعبد إلى غياب رجل الدين المتطوع والمتفرغ لأمور لعبادة، حيث كان الوضع في الهند هو أن يضطلع البراهمان (طبقة رجال الدين) بدور الوعظ

(١٦) نفس المصدر.

والإرشاد الديني. ولكن تراجع دور رجل الدين في مجتمع الجالية قد أفسح المجال للوالدين للقيام بمهمة الوعظ والتعليم الديني للأبناء، الأمر الذي جعل من للتربية الدينية شأناً ضعيفاً في نفوس الأجيال الجديدة. ويمكن القول إن غياب المعبد أيضاً قد جعل من عقيدة أهل الهند عقيدة تصويرية تعتمد على الرموز والصور، حيث أصبحت الطقوس تؤدَّى بشكل فردي وأصبح كل هندي يمتلك معبداً صغيراً في منزله وآخر في متجره ليملأ الفراغ الذي خلفه غياب المعبد.

وعلى الرغم من بعض الاختلافات الطفيفة، إلا أن التباين العقائدي لم يكن مدعاةً للخلاف والشقاق، فهم يجاملون بعضهم البعض بكثرة في المناسبات الدينية، لأن الانتماء في الأصل أصبح للهند و"الشخصية الهندية".[١٧]

العلاقـات الاجـتماعيـة ودرجــة

الاندماج في المجتمع السوداني:

تمثل العلاقات الاجتماعية الحميمة مدخلاً للتصاهر والترابط الاجتماعي بين أفراد المجتمع، ويلاحظ أن علاقات شباب الجالية الهندية بالسودانيين محدودة. وبذلك فهم لا يستجيبون لتأثيرات المجتمع من حولهم، لأنهم يرفضون ضمناً الاختلاط بالسودانيين، فنجدهم يخرجون للنزهة بعد الساعة التاسعة مساءً، وفى المقابل يكون الشباب السودانيون قد عادوا أدراجهم.[١٨]

(١٧) مقابلة مع السيد ناريش بابو لال، ٢٠٠٤/١٢/١٩م.

(١٨) مقابلة مع السيد كمال جيسو خلال، ٢٠٠٤/١٢/٢٤م. [شاب هندي اعتنق الاسلام وتزوج من فتاة سودانية]

ومن مؤشرات الاندماج الاجتماعي الحقيقي معرفة لغة وثقافة القوم. فبالنظر إلى أبناء الجالية، لا سيما الجيلين الثاني والثالث – باعتبار أنهم قد ولدوا في السودان – نجد أن قدرتهم على التحدث بالعربية يشوبها بعض الضعف. يظهر هذا بصورة واضحة إذا عقدنا مقارنة بينهم وبين أولئك الذين ولدوا في السودان لأسر أخرى جاءت في سياق اللجوء، حيث أن هؤلاء يتحدثون العربية بدرجة من الطلاقة يصعب معها تمييزهم عن بقية المواطنين. وهذا يبينٍ مدى الاستعداد الفطري والنفسي لاندماج هؤلاء في المجتمع على عكس أفراد الجالية الهندية. وربما واجه أفراد الجالية الهندية بعض الصعوبات في التحدث بالعربية بطلاقة، إلا أننا نجد معظمهم يجيدون التحدث بكل اللغات واللهجات المحلية الخاصة بقبائل شرق السودان (التبداوية – الحبابية). ولعل ذلك من مقتضيات العمل التجاري الذي يمثل جوهر بقاء أعضاء الجالية في السودان.

موقع العمل التطوعي في القيم الروحية الهندية:

يُعرَّف العمل التطوعي بأنه ممارسة إنسانية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بكل معاني الخير والعمل الصالح عند كل المجموعات البشرية منذ أن خلق الله الأرض وأوجد الإنسان عليها. وتجدد هذا المفهوم عبر الأديان السماوية جميعاً وآخرها الإسلام.[١٩] وظل هكذا ممارساً بصورة أو بأخرى في كل مجتمعات العصور السالفة. على أن النصف الثاني من القرن العشرين يعتبر عهد انطلاقة العمل التطوعي الحديث على مستوى العالم إلى الدرجة التي تؤهله بحق أن يكون القطاع الثالث بعد القطاعين العام والخاص، وذلك على ضوء مشاركته الفاعلة في التنمية الاجتماعية وقدرته على الوصول إلى الشرائح الضعيفة التي لا تصلها يد السلطات الحاكمة. وقد ورد في

(١٩) عبدالرحمن ابودوم، العمل التطوعي والأمن: منظور إيماني، الدوحة،٢٠٠٣م.

قانون العمل التطوعي والإنساني لسنة ١٩٩٩ "إن العمل التطوعي يقصد به أيُّ نشاط تطوعي إنساني خيري غير حكومي يقوم به كيان تطوعي وطني أو كيان أجنبي مانح أو منفذ لبرامجه. ويكون النشاط ذا أغراض اجتماعية أو تنموية أو إغاثية أو دعائية أو خدمية أو علمية أو بحثية ويتم تسجيله وفقاً لأحكام هذا القانون".[٢٠] على ذلك فقد استطاعت المنظمات غير الحكومية (NGOs) في العقود القليلة الماضية أن تتطور من كم مجهول إلى وضع متميِّز وفاعل، أجبر الحكومات ومؤسسات المجتمع المدني، بل والمجتمع الدولي بأكمله، لاحترامه والثناء على قدراته في بلوغ الشرائح المستهدفة وحل مشكلاتها. ذلك إضافةً إلى روح المبادرة والابتكار والمرونة التي تتمتع بها المنظمات الوطنية على مستوى العالم بعدم خضوعها للروتين الحكومي وقيوده.

أما فيما يتصل بالعلاقة بين العمل التطوعي والنظام الروحي الهندي، فتعتبر المعتقدات الدينية في الهند أساس جميع النظم والممارسات الاجتماعية، وكل ما يوجد في الهند من هذه النظم وتلك الممارسات، ليست بالحقيقة إلا نظماً دينية. ولما كانت الهندوسية تمثل إطاراً عاماً للمعتقدات الهندية بما تحويه من جوانب روحية ومبادئ تنظيمية وما سواها من المعتقدات الأخرى،[٢١] لا يعدو في كونه أكثر من ثورة نبعت من داخل الهندوسية تمثل تياراً إصلاحياً بحسب رؤيتها، ترفض التصنيف الاجتماعي لنظام الطبقات وترفض كذلك آلهتها، مع الاتفاق حول المبادئ الأخلاقية والإنسانية والتي نحن بصدد الحديث عنها. وبهذا الفهم نعتبر الحديث عن الهندوسية في جانبها الأخلاقي بالضرورة يشمل مجمل معتقدات أهل الهند.

(٢٠) عبد الرحيم بلال، مفهوم العمل التطوعي، ورقة قدمت لمؤتمر التنظيمات الأهلية، الخرطوم، ١٩٩١.

(٢١) غوستاف لوبون، حضارة الهند، ترجمة عادل زعيتر، دمشق: دار الكتب العربية، ١٩٤٨، ص ٢٠٨-٢٥٥.

وبالنظر إلى الفلسفة الهندية نجد إنها قسمت الحياة إلى أربع مراحل، وجعلت لكل مرحلة منهجاً يليق بها، وكل دور مدته خمس وعشرون عاماً، باعتبار أن متوسط العمر مائة عام، وهي على النحو التالي:

الدور الأول: هو دور التربية الجسدية والعقلية والروحية.

الدور الثاني: هو دور الحياة العائلية، فيتزوج المرء في هذا الدور ويكون له أهل وذرية ويقوم بواجباته الأهلية.

الدور الثالث: في هذا الدور يتنحى المرء عن الحياة العائلية هو وزوجته، ويشغلان أنفسهما بخدمة المجتمع دون أن يكون لهما مطامح شخصية أو منافع عائلية.

الدور الرابع: وفي هذا الدور يتجرد المرء من كل ما هو دنيوي ويتفرغ للرياضة الروحية.[٢٢]

وبالنظر إلى هذه المراحل الأربعة السابقة، نلحظ إنها كلها تندرج في إطار مفهوم العمل التطوعي بمعناه الشامل باعتبار أن مجالات العمل التطوعي تتنوع بتنوع الإحسان والخير، فكل عمل ذي فائدة للإنسان أو الحيوان أو البيئة التي يعيش فيها فهو عمل تطوعي.

ولما كان للعمل التطوعي وجوه عدة، فانه يمكن لأي متطوع أن يتطوع بالوجه الذي يراه مناسباً، سواء بالنسبة لإمكاناته المادية أو المعنوية أو زمن فراغه. فإنه ينظر إلى هذه المراحل على النحو التالي:

(٢٢) اتريا كشاكرجي، كتاب ثقافة الهند وحياتها الروحية والأخلاقية والاجتماعية، ترجمة أمين سلامة، بيروت: دار الفكر العربي، (ب ت)، ص ٢٥٥.

يعمل الدور الأول على غرس قيم ومفاهيم التطوع في النفس البشرية وهي لا تزال في طور التكوين والنشأة، ويتم ذلك عبر تغذية العقل ببرامج التربية الروحية. وفي هذا الصدد يذكر ابن خلدون أن الطبيعة البشرية هي جدلية بالأساس، إذ أن نزعات الإنسان الخيرة في صراع دائم مع ميوله الشريرة، ولذلك فالطبيعة البشرية غير مستقرة ولا تستطيع مقاومة الوسط المحيط بها، ونتيجة لذلك فإن الاتجاه الذي ستسلكه هذه الطبيعة سيتحدَّد بواسطة عوامل خارجية (عامل الدين أو الثقافة بشكل عام). فالإنسان يرث أساساً خيراً من الطبيعة البشرية ولكنه ليس أساسًا ثابتًا، بل يتغير بتغير العوامل الخارجية، وذلك لأن جوهر الطبيعة البشرية هو المرونة والتغيير.[٢٣]

أما الدور الثاني، فيحدث نقلة بالنسبة للفرد فيما يختص بالممارسات التطوعية، فعند الزواج يقود الشاب الهندوسي عروسه إلى منزل والديه، فيصبح أيضًا محل إقامة للزوجين الجديدين وأطفالهم، وعلى هذا النحو يعيش ثلاثة أجيال وربما أكثر تحت سقف منزل العائلة، ويصبح ما يمتلكونه مشاعًا بين الجميع، وتنفق مصاريف العائلة بأجمعها من الدخل العام لجميع الأفراد. فمن الواضح إن نظام الارتباط العائلي كان له منافع كثيرة، خاصة وقد توفرت فيه العناية بالأرامل والعجزة والمسنين ومن ضعفت مقدرتهم عن العمل من أفراد الأسرة، هذا فضلاً عن قيمة الإتحاد الناشئ من منابعه الأدبية والمادية. وتكون الحياة العائلية بذلك قد مثلت الخطوة الأولى بالنسبة للفرد ليعي فيها المعاني الحقيقية للتطوع في المحيط الأسري.[٢٤]

(٢٣) ابوزيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (١٩٩٣م): مقدمة ابن خلدون، بيروت: دار الكتب العلمية، ص١٥١.

(٢٤) سير اتول، الهند الجديدة، ترجمة عبد المنعم المسيري، بيروت: دار الفكر العربي، ١٩٥٥م، ص٢٧.

ثم يأتي الدور الثالث لينصب صراحة على تفرغ الزوجين لخدمة المجتمع دون أن يكون لهما مطامح شخصية أو منافع عائلية – كما أسلفنا، وفي تقديري أن هذا الدور لا يحتاج إلى كثير بيان، حيث أن التفرغ الكامل لخدمة المجتمع يمثل أوسع أبواب التطوع.

وهنا تجدر الإشارة إلى الوصية الخامسة من وصايا بوذا "أي الجهد القيِّم"، ويقصد بها الجهد الموجه نحو هدف نبيل، وليس في البوذية هدف أنبل من "خلاص النفس" و"خدمة سائر الخلق"، بصرف النظر عن أديانهم وألوانهم وأجناسهم ولغاتهم (ليكن هدفك في الحياة خلاص نفسك وخدمة الإنسانية جمعاء). وكذلك العيش البسيط الذي ليس فيه تقشف أو ترف، والذي ينضره الإحسان إلى الغير، فالبساطة في المأكل والمشرب ممتزجة مع الإحسان إلى الغير، هي أبرز صفات البوذي الحق.[٢٥]

ثم أخيراً يأتي الدور الرابع الذي يتحرر فيه المرء من كل ما هو دنيوي ويتفرغ للرياضة الروحية، وهذه المرحلة التي تجسد أسمى معاني التطوع التي تعني التطوع شكراً للإله الأعظم ورب الأرباب، لما أنعم عليه الإله بنعمة التدين ومن ثم العمل التطوعي نفسه، حيث أن كمال العبادة يقتضي تسليم النفس للإله خاضعةً ذليلة وفي ذلك أصدق المعاني.

وفي سياق العمل التطوعي وقيمه وردت العديد من النصوص التي تحوي مفاهيم وأدبيات تمثل في مجملها قيم العمل التطوعي، وبالنظر إلى هذا النص المقدس الذي يُعنى بالبيئة ومكوناتها يتضح ذلك المعنى: "وليكن طعامك مما تنبته الأرض وتثمره الأشجار، ولا تقطف الثمر بنفسك، بل كل منه ما سقط من الشجرة بنفسه".

(٢٥) مصطفى حامد الامين، ما هي البوذية، القاهرة: (ب ن)، ١٩٥٧م، ص ٤٤.

وفي هذا يقول علماء النبات إن نضوج البذرة داخل الثمرة يعني قابليتها للإنبات متى ما توافرت الظروف المواتية لذلك، والعكس فإن قطف البذرة قبل أوان نضجها لا يحدث الإنبات، وهذا أمر بينٌ.(٢٦)

ويروى عن اهتمام الهندوس بالأرض إنهم كانوا يذهبون صباحاً ومساء قبل شروق الشمس وغيابها إلى ظاهر المدينة ليقضوا حاجاتهم، فيحفرون في الأرض حفراً صغيرة يضعون فيها أعواداً أو ورق شجر أو عشباً أو تراباً، إذا كانت الأرض حصباء، ثم يقضون حاجتهم ويسترون ما أفرزوا ثم يعودون أدراجهم، وذلك تعظيماً للأرض.(٢٧)

وهناك في الهندوسية أيضاً قصة "مانو" ويقابل تقريباً في هذه الديانة سيدنا نوح عليه السلام في الديانات السماوية، وقد أضاف الهندوس له بعداً فلسفياً. فها هو يعتني بسمكة صغيرة بناءً على طلبها، فيضعها في إناء به ماء، وعندما تكبر يضعها في حفرة بها ماء، وعندما تكبر يأخذها إلى البحر، بعد أن تكون قد أمنت نفسها من السمك الكبير الذي لن يأكلها لأنها أصبحت مثله.

وترد السمكة الجميل لـ"مانو" فتنصحه بإعداد مركب لينقذ نفسه ومن يريد من الطوفان القادم، وأن يأخذ من كل دابة زوجين.

وترى الفلسفة الهندية أن الحياة الإنسانية في جوهرها وحدة لا تتجزأ، والروح الساري في جميع الأحياء واحد، فليس هنالك في الحقيقة مخلوق مغاير لمخلوق آخر من ناحية الجوهر، وإن سائر الأحياء – وإن ظهر كل واحدٍ منها منفصلاً

(٢٦) منو اسمرتى، كتاب الهندوس المقدس، تعريب إحسان حقي، بغداد: دار اليقظة العربية، ١٩٧٠م.
(٢٧) نفس المصدر ص ٢٣٦.

عن الآخر – مثلها مثل الجزر في سطح البحر، تبدو كل واحدة منفصلة عن الأخرى في الظاهر، إلا أنها جميعاً مرتبطة ببعضها برباط عام، هو قاع البحر. فروح الفرد في الفلسفة الهندية ترتبط ارتباطا وثيقاً بروح الكل، لأنها جزء لا انفصال له من روح سائر الكائنات. فالذي يدرك هذه الحقيقة الخالدة، أي حقيقة "وحدة الحياة"، لا يملك إلا أن يشعر بالحب والعطف على جميع الكائنات، دون النظر إلى أوجه الاختلاف السطحية بينها، ولا يملك إلا أن يجعل عمل الخير لسائر الكائنات، الهدف الذي يسعى إليه في جميع تصرفاته، حيث يقول بوذا في هذا السياق: "إن طريق الكمال الروحي مستقيم لا عوج فيه. أما بابه فتحرير الذهن وتطهير القلب، وأما نهايته فالسلام والحنان لكل الأحياء، إن الذي يسلك هذا الطريق لا يقول هذا أنا، وذلك الإنسان غيري، ولذلك في نفعه خسارتي. كلا، بل يقول.. يجب عليّ أنا الذي فزت بالبصيرة وحطَّمت أغلال الأنانية، أن أشعر بالحب والحنان على جميع الأحياء".[٢٨]

فهذا هو جوهر المبادئ الهندية التي عملت على ترسيخ معاني التطوع والتي في إطارها سنقوم بعرض ومناقشة الأوجه المختلفة لمساهمة الجالية الهندية في العمل الخيري والتطوعي في كسلا.

الجالية الهندية والعمل الخيري والتطوعي في كسلا:

ولما كان السودان قد عرف العمل التطوعي أول ما عرفه بأشكاله التقليدية البسيطة مثل الأندية الرياضية ومؤتمر الخريجين العام والمدارس الأهلية وغيرها من الممارسات الفردية مثل تقديم الصدقات وإعانة الفقراء والمحتاجين، فقد كانت للجالية الهندية كذلك حضوراً معتبراً في هذه الأعمال الخيرة: ويأخذ العمل التطوعي عند

(٢٨) مصطفى حامد الامين، مصدر سابق، ص ٣٢.

أفراد هذه الجالية شكلين، هما:

شكل مباشر: وهذا يكون عن طريق تقديم العون المادي والعيني للمحتاجين والمنكوبين والفقراء.

شكل غير مباشر: وهذا يتضح من خلال السلوكيات الإيجابية والرشيدة التي تمدهم بها قيم الفكر الهندوسي حيال البيئة ومكوناتها من نباتية وحيوانية وغيرها.

الجدير بالذكر أن أعضاء الجالية ليس لهم كيانٍ مؤسس للقيام بأعمال البر والإحسان، فبينما يقوم البعض بمجهودات فردية أحياناً، فإن اللجنة الإدارية للجالية تضطلع في أحيان أخرى بدور المنسق فيما بين الأعضاء. وما يسعى إليه المجتمع الدولي وأنصار البيئة والمنظمات العالمية للمحافظة على البيئة والتنوع الإحيائي فيها من خلال عقد الاتفاقيات وتأسيس المنظمات مثل "جماعة السلام الأخضر"، فإن المعتقدات الهندية قد عملت على غرس هذه المفاهيم من قبل في نفوس أتباعها، وكان نتاج ذلك هذه السلوكيات الرشيدة تجاه البيئة. وبين هذا وذاك، فإن الجالية قد ساهمت بشكل فعال في إعانة الفقراء والضعفاء والمنكوبين في كوارث الحريق والفيضان،[٢٩] ولهم إسهامات واضحة لا تخطئها العين في حقل التعليم والخدمات الصحية حيث يقدمون الفاكهة بصفة دورية لمرضى عنبر الصدرية والمشاركة في أعمال إصحاح البيئة.[٣٠]

(٢٩) مقابلة مع رئيس الجالية، ٢٠٠٤/١٢/٢١م.

(٣٠) مقابلة مع عمدة مدينة كسلا، ٦٥ عاماً، ٢٠٠٤/١٢/١٨م.

ومن الأشياء التي تستحق أن نقف عندها أن الباحث قد لاحظ من خلال تجواله على المحال التجارية لأفراد العينة المبحوثة أنه لا يخلو متجر من صورة من صور مساعدة الفقراء. فبينما يقوم البعض بتوزيع قطعة خبز جاهزة لكل سائل، يقدم البعض الآخر تمراً، وتجد ثالثاً يتجول ليلاً ليوزِّع ملابس الشتاء على الأطفال المشردين الذين يفترشون الثرى، وبعضهم يقومون بتوزيع وجبات جاهزة للنزلاء وتوفير العلاج للمرضى،[٣١] هذا بالإضافة للمساهمات المادية. وكذلك يعملون على تلبية النداءات التي توجَّه لهم بشأن المساهمة والمساعدة لدار العجزة. ويمكن القول أن الجهد الذي تضطلع به الجالية لم تقم به منظمات وطنية كثيرة، وهي بذلك تعتبر جالية متعاونة بقدر كبير اضطلعت بأدوار عظيمة ولفترات زمنية طويلة.[٣٢]

أما فيما يتصل بحماية التنوع الإحيائي والمحافظة على البيئة، فمما لاشك أن الكون الذي خلقه الله سبحانه وتعالى مبنيّ على التوازن البيئي، وأن أيَّ إخلال في النظام البيئي يحدث نتيجةً لتعامل سيء وسلوك غير رشيد مع البيئة، حيث أدَّت مثلاً عملية اصطياد النمور في دارفور إلى تكاثر نوع من القرود عرف بقرود الشامبانزى (التقل) والتي انتشرت بكثرة فائقة وأصبحت تعمل على تخريب قضيب السكة حديد. فلولا اصطياد النمور لما برزت هذه الظاهرة، وذلك لأن النمور تعيش على أكلها. وهناك مثال آخر في الزراعة، فعلماء وقاية النباتات يستخدمون مبيدات لآفة معينة، ولكن إبادتها يتسبب في ظهور آفة أخرى أكثر ضرراً، وذلك لأن هذه الآفة تعتمد عليها آفة أخرى في السلسلة الغذائية خاصتها.

(٣١) مقابلة مع نقيب شرطة نور عبد الرحمن، خبير نفسي، مصحة كسلا، ٢٠٠٤/١٢/٢٠م.

(٣٢) مقابلة مع مدير الرعاية الاجتماعية بولاية كسلا، ٢٠٠٤/١٢/٢٦م.

فالمعتقدات الهندية تزود أتباعها بسلوكيات رشيدة تعمل على ترسيخ مفاهيم صون البيئة ومكوناتها. وهناك رواية تؤكد ما ذهبنا إليه مفادها أن بعض الشباب كانوا يقومون باصطياد الطيور بالشراك يحملونها إلى الهندي في متجره ويقولون له: "إما أن تعطينا مبلغاً لوجبة الإفطار أو نقوم بكسر رقبة هذا الطائر وقتله". فيعطيهم المبلغ المطلوب نظير إطلاق سراح الطائر الأسير.(٣٣)

نتائج الدراسة:

لقد خرجنا من دراستنا هذه حول الجالية الهندية في كسلا ودورها في العمل التطوعي نتائج يتلخص أهمها فيما يلي:

أولاً : إن العمل التطوعي الذي تضطلع به الجالية الهندية في كسلا مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمفاهيم الدينية الهندوسية. ولما كان الارتباط بالأديان يعني في إحدى صوره الانتظام في ممارسة الشعائر الدينية وأداء المناسك في أوقاتها، فقد أو ضحت النتائج أن نسبة الذين يؤدون الشعائر الدينية بانتظام من العينة المبحوثة بلغت ٧٥,٥٪، وهذه تعتبر نسبة مقدرة بالنظر إلى ما ساد العالم من نظريات وأفكار إلحادية جعلت من الدين أفيوناً للشعوب.

الجدير بالذكر أن الدين بالنسبة لأهل الهند يمثل نظام حياة متكامل من حيث القيم والأخلاق والمعاملات، كما له دور بارز في تشكيل السلوك الإنساني عندهم، وليس أدلُّ على ذلك من أن نسبة الذين يقررون بأن مساعدة الآخرين ومعاونتهم واجب يحتِّمه عليهم الدين فقد بلغت ١٠٠٪ من العينة. وبما أن مبادئ العمل التطوعي تقتضي الجماعية والتعاون، فقد بلغت نسبة الذين ينشدون التعاون فيما بينهم

(٣٣) مقابلة مع السيد مهندرا كيسو لال، ٦٤ عاماً، ٢٠٠٤/١٢/٢١م.

والآخرين ٩٢,٥٪، بينما بلغت نسبة الذين يقدمون عونهم للمجتمع بأسره ٨٨,٧٪، متجاوزين في ذلك روابط اللون والجنس والدم تكريماً للإنسان.

ثانياً: هناك علاقة بين درجة التدين على الهندوسية والعمل التطوعي. فقد رأينا أعلاه أن نسبة ١٠٠٪ من العينة المبحوثة يقررون بأن مساعدة الآخرين واجب يحتِّمه عليهم الدين. فإذا كان هذا شأنهم، فإن الأشخاص الذين لم يتمكن الدين من نفوسهم بالقدر الكافي حتماً سيكونون الأقل عطاءً في حقل العمل التطوعي، وبذلك يمكننا القول أن التناسب طردي بين درجة التدين على الهندوسية والإقبال على العمل التطوعي، فكلما ارتقى الفرد في مراتب التدين كلما أمدته العقائد الهندية بالمزيد من القيم التي تخاطب فيه معاني الخيرية.

وإذا أخذنا جانب الإنفاق على الأسرة الممتدة التي تشمل فيما تشمل جيلين فأكثر، حيث يرتبط الجيل الثاني بالجيل الأول ويكون امتداداً له، باعتبار أن الإنفاق وجهاً من وجوه العمل التطوعي، فقد بلغت نسبة الذين ينفقون على الأسرة الممتدة من خلال نظام الارتباط العائلي الذي يجعل الفرد في بيئة تحوى عدداً من الشرائح الضعيفة من العجزة والمسنين والأرامل ٧٧,٤٪، وهذه القيمة بدورها تمثل نتاجاً للفكر الهندوسي الذي قسم الحياة إلى أربعة مراحل حيث يندرج هذا الفهم في إطار المرحلة الثانية (دورة الحياة العائلية).

ثالثاً: يوجد ارتباط بين الهندوسية ومجالات محددة من مجالات العمل التطوعي. لقد كشفت النتائج عن أن نسبة ١٠٠٪ من العينة يعملون على مساعدة الآخرين. وبما أن العمل التطوعي يمكن أن يأخذ صوراً متعددة وأوجه مختلفة بالنسبة للأفراد أو الجماعات، فتبدو بعض وجوه العمل التطوعي أكثر وضوحاً من غيرها، إذ بلغت نسبة الذين يقومون بأعمال تندرج في إطار العمل التطوعي ٩٢,٦٪ مشتملة

على العديد من صور العمل التطوعي، بينما بلغت نسبة الذين يعملون على مساعدة العجزة والمسنِّين عبر دور الرعاية المخصَّصة لذلك ٧٧،٣٪. ولعل تفسير ذلك يرجع إلى ما يحظى به المجتمع الهندي من نظام الارتباط العائلي الذي تتوفر فيه العناية بالمسنِّين ومن أقعدتهم الظروف عن العمل، وبالمثل فإن الفكر الهندي قد زوَّد أتباعه بقيم ومعاني جعلت منهم أكثر شفقةً ورحمةً تجاه الآخر، ليس الإنسان فحسب، ولكنها انداحت لتشمل الحيوان ومختلف الكائنات الحية من نباتات وغيرها، حيث بلغت نسبة الذين يولون الحيوان عناية خاصة ٣,٧٧٪. ولعل هذا على سبيل المثال لا الحصر، حيث يمكن القول إجمالاً أن هناك أوجه محدَّدة من أوجه العمل التطوعي تبدو أكثر وضوحاً من غيرها.

رابعاً: تتسم الجالية الهندية عامة باتجاهات إيجابية نحو العمل التطوعي. فقد استخدم الباحث – لأغراض البحث – مصطلح العمل التطوعي للإشارة إلى كل أعمال الخير والبر والإحسان، سواءً بالنسبة للإنسان أو الحيوان أو النبات أو البيئة التي يعيش فيها. ولما كانت الأعمال الخيرة التي يضطلع بها مجتمع البحث تمثل صوراً مقدرة لأعمال الخير شملت العديد من المجالات، فقد قام الباحث بتقسيم الجهد التطوعي إلى ثلاثة محاور على النحو التالي:

المحور الأول: ويتمثل في إعانة دور العبادة والمؤسَّسات العقائدية، حيث اتضح من خلال التحليل أن نسبة ٣,٧٨٪ يقومون بتخصيص مساهمات نقدية من فوائد المحال التجارية عند الجرد وذلك لإرسالها للمعبد بنهاية كل عام.

المحور الثاني: ويتمثل في التطوع بالجهد، حيث بلغت نسبة الذين يساهمون بجهدهم في الأعمال التطوعية ١٦,٩٨٪ ويشمل التطوع بالجهد المشاركة في أعمال مجابهة الكوارث من فيضانات وحرائق وغيرها.

المحور الثالث: ويتمثل في العمل الاجتماعي، وقد اشتمل على العديد من صور التطوع ذات الارتباط المباشر بحاجيات المجتمع. وقد أوضحت النتائج أن نسبة ٢,٣٩٪ من العينة يعملون على توعية المجتمع من مخاطر الإيدز، ٢١,٤٣٪ يقدمون الطعام للجوعى، ١١,٩١٪ يعملون على رعاية الحيوان، ٩,٥٢٪ يعملون على رعاية النزلاء، ١٦,٦٦٪ يعملون على سقاية الماء سواء بالنسبة للإنسان أو الحيوان، ٤,٧٦٪ يعملون على رعاية العجزة، ١٦,٦٦٪ يعملون على إعانة الفقراء والمحتاجين، ٩,٥٣٪ يقدمون الدواء للمرضى، ٧,١٤٪ يعملون على توزيع ملابس الشتاء للفقراء والمحتاجين.

ولعل كل هذه الممارسات الخيرية تمثل صوراً مختلفة للعمل التطوعي وتدور في فلك العمل الاجتماعي مستهدفةً بذلك المجتمع بأسره وتتسع دائرتها لتشمل كذلك الحيوان إلى جانب الإنسان.

خاتمة:

لقد رأينا من خلال ما تقدم أن الجالية الهندية في كسلا تقوم بقدر كبير من العمل التطوعي والخيري في مختلف صوره، وهذا مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمفاهيم دينهم الهندوسي وقيمه ونابع من هذه المفاهيم والقيم. وهكذا تكون هذه الدراسة قد تناولت نوعاً من العمل التطوعي غير مألوف في المجتمعات الأخرى، ونعني العمل التطوعي المرتبط بالمعتقدات الدينية. وهذه الدراسة بمثابة دعوة للباحثين في مجال علم الاجتماع للقيام برصد نقاط القوة الكامنة في الثقافات المحلية وتحليلها والسعي لتوظيفها لمصلحة الجهد الخيري والتطوعي. كما ندعو لإجراء دراسات علمية مستفيضة عن السلوك الاجتماعي للأقليات المستوطنة في السودان وتوظيفها في دعم قدرات المجتمعات. وأخيراً إن ما تقوم به الجالية الهندية في كسلا يستحق اهتمام

السلطات المحلية والولائية، بل حتى القومية، والتعريف به باعتباره نموذجاً يحتذى به لترسيخ ثقافة التطوع والعمل الخيري.

المراجع

- إبراهيم عثمان (١٩٨٩م): الأصول في علم الاجتماع، الكويت: مؤسسة الكميل.

- أبوزيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (١٩٩٣م): مقدمة ابن خلدون، بيروت: دار الكتب العلمية.

- اتريا كشاكرجي (ب ت): ثقافة الهند وحياتها الروحية والأخلاقية والاجتماعية، ترجمة أمين سلامة، بيروت: دار الفكر العربي.

- منو اسمرتى (١٩٧٠): كتاب الهندوس المقدس، تعريب إحسان حقي، بغداد: دار اليقظة العربية.

- لؤي محمد عثمان (٢٠٠٦م): "كسلا هبة القاش"، مجلة سد مروي، العدد ٣٦ (عدد يونيو).

- عبد الرحمن أبودوم (٢٠٠٣م): العمل التطوعى والأمن: منظور إيماني، الدوحة.

- عبد الرحيم بلال (١٩٩١م): مفهوم العمل التطوعي، ورقة قدمت لمؤتمر التنظيمات الأهلية، الخرطوم.

- غوستاف لوبون (١٩٤٨م): حضارة الهند، ترجمة عادل زعيتر، دمشق: دار إحياء الكتب العربية.

– مصطفى حامد الأمين (١٩٥٧م): ماهي البوذية؟ القاهرة: (ب ن).

– سير أتول (١٩٥٥م): الهند الجديدة، ترجمة عبد المنعم المسيري، بيروت: دار الفكر العربي.

- Mountjoy, Alan B. & David Hilling (1988): *Africa: Geography and Development.* London: Book Print Creative Service.